للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٣٨ —

١ — « ... وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطر يكون متضوعاً فى الهواء : لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت منى. ثم لا تدفعنى إليه إلا فطرة الشعر والاحساس الروحانى ، دون فطرة الشر والحيوانية ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة ، أكبر منها غير أنه هو منها ! »

* * *

٢ — « ... ولكنه عاشق يثير العشق بين يديه ؛ فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس : ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها ولا شىء غير ذلك ؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا

« والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىء نهائى فلا هجر ولا وصل ، ينساك بعد ساعة ولكنك أبداً باقية بكل جمالك فى نفسه . والصغائر التى تبكى الناس وتتلذع فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة فى وهمهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب ، تبكيه هو أيضاً وتتلذع فى قلبه ، ولكنها تظل عنده صغائر ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبره على جبار الحب ! »

(هو الرافعى)

الجمال البائس

وهذا حب جديد وليلى جديدة ، ولكنه حب كما وصف الرافعى ؛ فما هو إلا سموٌّ بالنفس فوق نوازع البشرية إلى غيب السموات يتنور فى عوالمها الخفية نورَ الانسانية فى حقائقها العالية

كان ذلك فى صيف سنة ١٩٣٥ ، وكان الرافعى يصطاف فى سيدى بشر ؛ ثم كان يقصد إلى الاسكندرية أحياناً ليلقى صديقه السياسى الأديب الأستاذ حافظ ... ؛ فان بينهما لصلات من الود ترجع إلى نحو عشرين سنة ، منذ كان الأستاذ حافظ محامياً فى طنطا .

وكان صديقه يقضى إجازته فى الاسكندرية ، مشغولا بكتاب يهم أن يصدره فى شأن من شئون الاسلام أوحى إليه بموضوعه فترةٌ غير قصيرة من تاريخه السياسى قضاها فى بلاد الحجاز ، وكان الرافعى يعاونه فى إنشاء كتابه ...

وكانا يتواعدان على اللقاء فى ملهى من ملاهى الاسكندرية على شاطئ البحر ، حيث تتهيأ لهما الفرصة من هدوء المكان فى النهار وقلة إقبال الناس عليه ، لما هما فيه من عمل

فى هـذا الملهى كانت تعمل فرقة الراقصة المشهورة « بيا » فيبتهج كل مساء بمن يفد إليه من طلاب اللهو والهوى ، ليفرغ الرافعى وصاحبه فى النهار يداولان الرأى فى شئون الأدب والدين والفلسفة . وشتان ليله ونهاره !

وكثر تردد الرافعى وصاحبه على هذا الملهى حتى ألفهما المكان وألفا ما فيه ، وألفهما فيمن أَلِف فتاة من راقصات الفرقة ، هى الايطالية الحسناء « ب ... » فما كان بينها وبين الرافعى إلا نظرة وجوابها ثم كانت قصة حب ...

وجلس الرافعى إليها يتحدثان ذات نهار ، وكشفت له عن صدرها وكشف لها ، فكان بينهما حديث طويل ، شهده الأستاذ حافظ من بدايته إلى منتهـاه ، ثم ترك الرافعى لهواه وتركته صاحبته ...

وذاق الرافعى مرة أخرى لوعة الحب وبرحاء الهوى ، وكانت محبوبته الأخيرة راقصة من بنات الهوى تعمل فى مسرح هزلى من مسارح الصيف المتنقلة بين شواطئ الاسكندرية ... !

تلك هى صاحبة « الجمال البائس »

* * *

وانتهت أشهر الصيف وعاد الرافعى إلى طنطا وعادت الفرقة الراقصة إلى القاهرة ، وشت ما بين الحبيبين !

ولقيتُ الرافعى بعدها فحدثنى حديثه والكلمات ترتعش على شفتيه وفى عينيه بريق عجيب ؛ ثم تهدج ورق صوته وهو يقول : « مسكينة ! ليتنى أستطيع أن أبلغ ما فى نفسها لأعلم ما تشكر من حظها وما تنكر ... ليس موضعها هناك ، ولكنه القدر ! »

ولقيته فى القاهرة ذات مساء ، وقد فرغ من مقالات

« الجمال البائس » فدعانى أن أصحبه إلى الملهى الذى تعمل فيه لبراها من بعيد ، وأرسل من يطلب له تذكرتين عند شاب من أبناء عمومته يعمل فى « دار الهلال » وأبطأ عليه الرسول فلم ينتظر ، فنهض ونهضتُ معه واتخذ طريقه إلى « عماد الدين » ..

ووقف بالباب ينظر الصور ويقرأ الاعلان وهو يسألنى : « أين اسمها ؟ وأين صورتها ؟ وأين ... وأين هى ! »

وطالت وقفته وهو ينظر إلى صورتها فى إطار كبير إلى جانب الباب يضم صورتها إلى صور شتى من راقصات الفرقة ما منهن إلا لها جمال وفتنة ، ولكن عينيه كانتا تنظران إلى صورة واحدة ، إلى صورتها !

ثم تحول عن الباب مسرعا عجلان وهو يجمجم بكلام لا يبين وقال لى وقد أسرعت إليه حتى حاذيتُه : « أيليق أن ندخل إلى هذا المكان ؟ أتراه من المروءة ؟ وددت لو رأيتها ولكن .. »

واتجهنا إلى قهوة « بول نور » فجلس وجلست ، ومضى يتحدث عن السحر والشعر وفتنة الجمال ؛ فما هى إلا لحظة ثم مرت بنا منحدرة من شارع فؤاد إلى شارع سليمان باشا ، فأتبعها عينيه من نافذة إلى نافذة حتى توارت فى مزدحم الناس ثم عاد إلى نجواه وشكواه ...

وجلس مرة يتحدث إلى صديقه الأستاذ حسن مظهر محرر « اللطائف » عن ذات « الجمال البائس » فأهدى إليه صورتها ؛ فما زالت هذه الصورة معه إلى أخريات أيامه لا تفارقه .

ولقد كان يحسن الظن بعلمها وفهمها ، حتى ليحسبها من قراء الرسالة فتفهم ما كتب من مقالات الجمال البائس لتعرف موضعها من نفسه !

وكان لا ينفك يسأل : « أتراها علمت ؟ أتراها قرأت ..؟ »

وما أحسبه لقى صاحبا من أصحابه إلا تحدث إليه عن صاحبة الجمال البائس ...

جلست منذ قريب إلى الأستاذ توفيق الحكيم تتحدث عن الرافعى وذكر من خبره فقص علىّ ، قال : « كان الرافعى يجلس على هذا الكرسى ، من هذه الشرفة ، وكان ذلك قبل منعاه بأشهر قليلة ؛ ومضى الحديث بينى وبينه حتى جاء ذكر صاحبة الجمال البائس ؛ فأخذ الرافعى يصفها لى وصفا لا أجد أبلغ منه ولا أجمل من صاحبته ، وطاوعه القول على تصويرها كما هى فى نفسه ؛ فما كانت عندي بما وصف إلا امرأة قد اجتمع لها من ألوان الجمال وفنون الحسن وسحر الأنوثة مالم يجتمع مثله لامرأة ؛ وتمثلت صورتها لعينىّ كما أراد أن يصف ؛ فلما بلغ آخر الحديث عنها ، قدم إلىّ صورتها فى ورقة لأرى بعينى مصداق ما سمعت ...

قال الأستاذ توفيق الحكيم : « ونظرت إلى الصورة التى صورها لى حديث الرافعى وإلى الصورة التى فى الورقة ، فكأنما استيقظت من حلم جميل !... يرحمه الله لقد كان شاعرا ... »

كذلك كان سلطانها فى نفسه وأثرها فى خياله !

* * *

وكانت نشأة هذه الفتاة فى طنطا لأول عهدها بالرقص ، وكانت تعمل مع فرقة قروية أقامت « خيمتها » فى طنطا بضع سنين ؛ ولم يكن الرافعى يعلم ذلك حتى عرفتها فى فرقة « بيا » ورأيت صورتها ؛ فلما أخبرته به أغمض عينيه وراح فى فكر عميق ... أتراه كان ينظم شعرا لم يجهر به ولم يسمعه أحد ؟

والعجيب أن الرافعى وهو فى غمرة هذا الحب الجديد لم ينس صاحبته « فلانة » ولم يفتر حبه لها ، بل أحسبه كان أكثر ذكرا لها وحنينا إليها مما كان ، وكأنما كان قلبه فى غفوة فأيقظه الحب الجديد ورده إلى ما كان من ماضيه

لقد كان قلب الرافعى عجيبا فى قلوب العشاق ؛ ليت من يستطيع أن يكشف عن أعماقه !

طنطا محمد سعيد العريان

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرع القاهرة بعمارة رفيه رقم ٤٦ شارع المدابغ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات والأمراض والشواذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والشيخوخة المبكرة . ويعالج بصفة خاصة : **زيادة الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية**
والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد أن يجيبوا على مجموعة الأسئلة البسيكولوجية المحتوية على ١٤١ سؤالاً والتى يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش